

الفضاء العام عند هابرماس: في المفهوم والتحويلات التاريخية

Habermas' Public Space: In Concept and Historical Transformations

نوار ثابت

Nowar Thabet

طالبة دكتوراه: قسم الفلسفة، الجامعة الأردنية. حالياً: الزرقاء، الأردن

*الباحث المراسل: nowar.thabet@gmail.com

تاريخ التسليم: (2017/10/24)، تاريخ القبول: (2018/3/14)

ملخص

تحاول الباحثة في هذا البحث سبر أغوار الفضاء العام؛ برصد بنيته، ووظيفته، وأماكن اشتغاله، وذلك من خلال رؤية هابرماس النظرية وتحليله لمبدأ العمومية (Publicity) في الفكر والفلسفة الحديثة، والذي حاول نقاشه وتحليله في القرنين الثامن والتاسع عشر في المجتمع الغربي. وبيان مكوناته في الحقل السياسي والاجتماعي، ومن ثم راهنية التفكير في فضاء عام ما بعد برجوازي/بديل. حيث ستقوم الباحثة بتناول الفضاء العام؛ مفهومه ومكوناته وتحولاته السياسية والاقتصادية كما وضّحها هابرماس في كتابه "التحويلات البنوية للفضاء العام"، ثم ستقوم الباحثة بتحليل تحولات الفضاء العام في المجتمعات الحديثة والعوامل التي ساهمت في ذلك. وأهم المناقشات والانتقادات التي أثّرت حول الفضاء العام من قبل المفكرين والفلاسفة.

الكلمات المفتاحية: الفضاء العام، هابرماس، التحويلات الاجتماعية-الاقتصادية، الدعاية، العمومية.

Abstract

The researcher attempts to explore the public sphere; and monitor his structure, function and places of work, through Habermas' theoretical vision and his analysis of the principle of "publicity" in modern philosophy. As he attempted to discuss and analyze in the eighth and nineteenth centuries in Western society. And to explain its components in the political and social field. Where the researcher will address the public sphere; its concept, components, political, economic transformations as

explained by Habermas in his book "Structural Transformations of Public Space", then the researcher will analyze the changes of public sphere in modern societies. And highlight the most important debates and criticisms raised the public sphere by thinkers and philosophers.

Keywords: The Public Sphere, Habermas, The Social and Political Transformations, Publicity.

المقدمة

يُعتبر مفهوم الفضاء العام واحداً من أهم المفاهيم المفتاحية التي يعتمد عليها في قراءة العلاقة بين السلطة والمجتمع في المجال والمضمون السياسي الحديث، خصوصاً بعد أن تُرجم كتاب الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس للغة الإنجليزية تحت عنوان (التحول البنائي للفضاء العام: دراسة في بنية المجتمع البرجوازي) في العام 1988، بعد أن كان قد أصدره بالألمانية في ستينيات القرن الماضي، حيث عرف مفهوم الفضاء العام؛ بوصفه فضاءً يتجمع فيه الأفراد والمشاركون للنقاش والتحاور العقلاني حول المسائل والقضايا التي تهمهم واحتياجاتهم من الدولة، من خلال ما يُعرف بتشكيل الرأي العام.

وقد اعتمد نقاش هابرماس وتصوره حول الفضاء العام "على خصوصية النطاق العام التي ظهرت في فترة ما قبل الحداثة الأوروبية"، التي شيد عليها الفضاء العام البرجوازي، وفي إطار ازدهار المجتمع المدني والتجاري، الذي ظهر في القرنين السابع عشر والثامن عشر في أوروبا، والتي أدت إلى تصور جديد للفضاء العام آنذاك بشكل غير عن وجود مجتمع مدني منفصل عن الدولة. ووفقاً لهذا التصور والتقييد الصارمين بهذا التاريخ على تعريف الحيز العام، بوصفه مثلاً معيارياً في الأدبيات الغربية، فإن هذه الرؤية اعتقدت بأن المجتمعات المدنية والمجالات العامة خارج أوروبا، لم تستطع أن تتطور نظراً إلى خضوعها لسيطرة تقاليد الدولة المستبدية، أو بسبب الثقافة الدينية التي تحول دون مقاومة المجتمعات لتلك الدول القمعية" (الربيعو، 2014).

تتحد إشكالية البحث بالنظر إلى مفهوم الفضاء العام والتأصيل الفكري والفلسفي العائد للفيلسوف الألماني يورغن هابرماس* حيث كانت أطروحاته حول الفضاء العام هي الأكثر أهمية وإثارة للجدل خلال القرن الماضي. فما هو الفضاء العام، وما هي ركائزه وأماكن أشغاله، وما هي مكوناته وشروط تكوينه. وما هي العوامل التي تحدد قوة أو ضعف المجال العام، والعوامل التي تلعب دوراً في تحولاته.

تفترض الباحثة بدايةً أن الفضاء العام هو المجال الذي يفكر فيه هابرماس بالإحالة إلى المضامين السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع، كما نظر هابرماس إلى الفضاء العام كحيز للممارسة السياسية من خلال مشاركة المواطنين وتشكيل الرأي العام. حيث أن المجال العام هو مكان تبادل الآراء ونقاش القضايا الأساسية والهامة التي تهم المواطنين.

وإن الفضاء العام مساحة قد تكون مادية أو افتراضية؛ يحث فيها للأفراد مهما اختلفت توجهاتهم الفكرية والأيدلوجية ممارسة حرياتهم إبداء آرائهم دون أي ضغط أو قيد من جهة معينة، وبالطبع لا ينفصل الفضاء العام عن المؤسسات الرسمية وغير الرسمية بل على العكس فإن مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدني هي التي يمكن أن تدعم الفضاء العام وهي في ذات الوقت يمكن أن تقوضه. فالدولة بطبيعة الحال لا تتوقف عن محاولة فرض هيمنتها على الفضاء العام من خلال وسائل الإعلام ماديا وافتراضيا. ومن ناحية أخرى، فإن المجتمع المدني ومؤسساته تلعب دورا تنظيميا في الفضاء العام وتقوم بتحفيز المواطنين وتوعيتهم بل وتعنتهم للدفاع عن مطالبهم وحقوقهم في مواجهة سلطة الدولة.

وإن طرح هابرماس حول مفهوم الفضاء العام كان جزءا غير منفصل عن منظومة الحداثة الغربية، بل كان الفضاء العام عند هابرماس مدخلا لإنقاذ الحداثة من الأزمة الواقعة فيها، خصوصا إثر تراجع مشاركة الأفراد السياسية وتأثير الرأي العام الخاص بهم.

المصطلحات والمفاهيم الواردة في البحث

يورغن هابرماس: ولد الفيلسوف الألماني هابرماس في مدينة دوسلدروف عام 1929، ونشأ في أسرة متوسطة الحال في كنف النظام النازي، درس هابرماس الفلسفة في كل من جوتنجن وزبورخ وبون، وقد انغمس أثناء درسته بأعمال مارتن هايدجر وتأثر بها أيما تأثر. ولكن سرعان ما خف حماسه اتجاه هايدجر وأعماله، وربما يعود السبب لموقف هايدجر من النظام والحزب النازي وبعض أطروحاته اتجاهه. وحصل هابرماس على درجة الدكتوراه عن أطروحته حول الفيلسوف الألماني فريدريك شلينج عام 1954. والتحق برفاقه بعد ذلك فأصبح مساعدا لثيودور أدورنو بمعهد البحوث الاجتماعية في فرانكفورت. تأثر هابرماس بأعمال هربرت ماركوزة وماكس هوركايمر وثيودور أدورنو وكلهم أعضاء ومؤسسو مدرسة فرانكفورت (معهد البحوث الاجتماعية في فرانكفورت)، ومنهم تعلم هابرماس النظر بعين ناقدة إلى كل ما يدور حوله من ثقافة وسياسة وأمور أخرى. وقبل كل ذلك تأثر هابرماس بأراء كارل ماركس، وهذا ما يظهر في جل أطروحاته.

مصطلح ما قبل الحداثة الأوروبية: يشير إلى الفترة التي سبقت التطور في وسائل الإنتاج والتحرر من سلطة الكنيسة، وتتبعها مرحلة الحداثة التي بدأت في القرن الخامس عشر. ومن ثم مرحلة ما بعد الحداثة التي برزت فيها سمت الخروج عن التقليد والمألوف، كما سادت سمة التشاؤم والإحباط مما أفضت إليه الحداثة من قولبة الإنسان وتحويله إلى مجرد آلة في ظل التقانة الحديثة.

فيللهم هيغل: من أهم الفلاسفة الألمان ويعتبر مؤسس الفلسفة المثالية، ومطور المنهج الجدلي. من أهم كتبه "فينومينولوجيا الروح" و"المدخل إلى علم الجمال" و"محاضرات في تاريخ الفلسفة" وغيرها من الأعمال.

ايمانويل كانط: من أهم فلاسفة التنوير الألمان في القرن الثامن عشر. من أهم أعماله "نقد العقل المجرد" و"نقد العقل العملي" و"نقد ملكة الحكم" و"السلام الدائم" وغيرها.

فكرة المواطنة الكونية أو مشروع المواطنة الكونية عند الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط يدعو فيها نحو نظام كوني أممي يحقق فيه العدل والحرية والنظم الدستورية على شكل مواطنة كونية تاريخية.

تطور الفضاء العام الأدبي في القرن الثامن عشر بمؤسساته الرئيسية وهي المجالات الأدبية، والدوريات، والمقاهي والصالونات حيث تمت مناقشة المنشورات فيها من قبل المشاركين. وكان الفضاء العام الأدبي يمثل المرة الأولى التي يمكن للجماهير أن يناقش فيها نقدياً الفنون والأدب، بالاستناد إلى الموارد التي تم تطويرها داخل الأسرة. ومن ثم فيما بعد تطورت إلى الفضاء السياسي العام.

من المصطلحات المهمة التي يتناولها هابرماس في كتابه التحولات البنوية في الفضاء العام "الدولة الدستورية البرجوازية" في القرن التاسع عشر، وهي محاولة لربط الفضاء العام بفكرة القانون الذي يكفل لمواطنيها حقوقاً أساسية معينة، مما يرقى إلى إنشاء الفضاء العام كمؤسسة عامة. والدولة تقوم بذلك من أجل إلغاء فكرة الدولة كقوة مهيمنة من خلال ربط القانون بمناقشات عقلانية. غير أن الدولة البرجوازية لم تدم طويلاً، بسبب الظروف والعوامل الاقتصادية والاجتماعية التي سادت في القرنين الثامن والتاسع عشر.

المجتمع المدني بالنسبة لهابرماس فهو مجال الإنتاج والتبادل، الذي يشكل جزءاً من المجال الخاص، وهو بالتأكيد يختلف عن الدولة. إذ يشمل المؤسسات الاجتماعية والأهلية بشكل عام. والتي تعمل وفقاً لقوانينها الخاصة، وهي بذات الوقت قادرة على تمثيل مصالحها أمام لدولة من خلال المجال العام.

يوصف "التحول الهيكلي" عند هابرماس بالعملية التي يتحول فيها الفضاء العام من كونه محور النقاش النقدي العقلاني، وجزءاً لا يتجزأ من الدستور ومحركاً ناقداً يمارسه المجتمع باتجاه السلطة بوصفه حاكماً ومحاكماً لها، ليصبح قطعة منفصلة عن كل ذلك. يصف هابرماس هذا التحول كما تمليه الهياكل المتغيرة في الشكل والوظيفة. وبالطبع فإن الهياكل التي يشير إليها هابرماس هي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. كما تشمل مؤسسات مثل المقاهي والصالونات والهياكل الاقتصادية.

حنا ارنت: كاتبة وفيلسوفة أمريكية من أصل ألماني، هاجرت إلى الولايات المتحدة بعد وصول هتلر إلى الحكم. كانت متحمسة في شبابها للحركة الصهيونية، وكانت السكرتيرة العامة لفرع منظمة هجرة الشباب في فرنسا من عام 1953 إلى 1939. عملت أستاذة جامعية في جامعة شيكاغو، وشغلت عدداً من المناصب في الجامعات الأمريكية. كما عملت في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية في نيويورك. كما أن لها العديد من المؤلفات أهمها "أصول الشمولية: العنف" "في الثورة" "حياة العقل" و"محاضرات في فلسفة كانط السياسية".

القروسطية Medieralism: هي فترة انتشار الإقطاع في أوروبا، من القرن (5- 15)م، وما رافقه من سيادة اتجاه فكري، ترتبط اتجاهاته الرئيسية بخصوصيات المجتمع الإقطاعي، اقتصادياً واجتماعياً وأيديولوجياً، ولاسيما بهيمنة الكنيسة على مجالات الحياة الروحية كافة.

ماكي Makee: بروفييسور وباحث استرالي الإعلام ومحاضر في جامعة Queensland

نانسي فريزر فيلسوفة أمريكية: وهي تعدّ من فلاسفة الجيل الثالث للمدرسة النقدية في معهد البحوث الاجتماعية. وقد نالت على شهادة الماجستير والدكتوراه في الفلسفة من جامعة نيويورك. ودرّست في جامعات عديدة مثل جامعة جورجيا وستانفورد ونورث ويسترن. والتحقّت في العاك 1995 في كلية الأبحاث الاجتماعية بنيويورك كأستاذة للفلسفة والعلوم السياسيّة.

مفهوم الفضاء العام Public Sphere

يحدّد هابرماس بعض المصطلحات الرئيسيّة التي تخصّ الفضاء العام ويقدم عنها لمحة تاريخية بطريقة فلسفية. إن تركيزه المبني على المصطلحات أمر مهم. والكلمة الألمانية "أوفنتليشكيت" "Offentlichkeit" هي محور النقاش وموضوع البحث هنا، ويمكن ترجمتها على أنها "الدعاية"، أو "المجال العام" أو "العمومية"، ويؤكد العديد من المترجمين والباحثين على أن "الفضاء العام" هي أفضل ترجمة، فهو يجعل "أوفنتليشكيت" (بيدو) كمكان أو شيء ملموس، بدلا من أن يكون فكرة أكثر تجريدية مع أنه بالفعل فكرة نظرية يمكن أن تطبق في عوالم مختلفة بشروط معينة (Habermas, 1991, P89-90). وتعرف أيضا بالوسائل العامة المفتوحة للجميع، والتي تتعلق أيضا بالدولة، والجمهور قاض حاسم فيها. الكلمة الألمانية "أوفنتليشكيت" أتت من الصفة الفرنسية بمعنى "العامة". وفي ألمانيا، ظهر المجال العام كجزء من المجتمع المدني، وكان مجالا لتبادل السلع الأساسية والعمل الذي تحكمه قوانينه الخاصة (Habermas, 1991, xvii).

وفي اليونان القديمة؛ "كان تقسيم بوليس-أويكوس (polis)-(oikos) موجودا والترجمة الحرفية لها هي؛ المدينة والمنزل وتمثل السلطة والمعيش. وكان الفضاء العام موجودا كمجال للنقاش والعمل المشترك. كما يقول هابرماس أن الفضاء العام اليوناني كان مجالا للحرية والديمومة، فمنذ عصر النهضة، كان هذا النموذج اليوناني مهما ومؤثرا (Habermas, 1991, xvii). يبدأ هابرماس مع اليونان القديمة حيث التقسيم بين (بوليس) و(أويكوس)، أو المدينة والمنزل (Town-Home)، وهو أقدم شكل من أشكال التمييز بين القطاعين العام والخاص. فكانت الأسرة اليونانية هي مجال العمل والتبادل والإنتاج، ولم يكن يُسمح للرجال اليونانيين بالدخول إلى العالم العام للمدينة بوليس إلا إذا كان لديهم صفة رب الأسرة أو السيد. وكان بوليس مجال المناقشة، والعمل الجماعي، ولا يمكن للمرء العادي والذي لا يتمتع بصفة خاصة أن يناقش أو يكافح أو يتفوق أو أن يكون حرا في المجال الخاص؛ أما (الأيكوس)/المنزل/الأسرة؛ فهو مكان المرأة والعبيد في الفكر والممارسة اليونانية القديمة. وإن تحول الأشخاص من المجال العام إلى الخاص لا يتم إلى عبر النظر في وضعهم في المجتمع. ويرصد هابرماس التحولات والتطورات التي طرأت على الفئات اليونانية المختلفة ضمن هذا السياق. ومن ذلك ظهرت تجليات الفضاء العام في أطوار نشوئه الأولى متمثلاً في "الأغورا" (Agora)، وهي ساحة عامة وفضاء للنقاش الحر في عهد

الدولة الأثنية (en.oxforddictionaries.com/definition/ agora الصفحة الإلكترونية لقاموس أكسفورد). والتي هي بمثابة مركز التوصل إلى القرار، وممارسة السلطة السياسية من خلال قوة الحجاج والإقناع. كما أنها مركز النقاشات اليومية، وساحة الفنون، والأعمال الأدبية التي يتم تداولها في الساحة العامة المليئة بالرقص والغناء والأدب. كما كانت الموقع الذي تمارس فيه طقوس الاحتفال بالأعياد وإقامة الاحتفالات العامة. كما كانت تجتمع الشخصيات الهامة كالحكام وحاشيتهم، فتتخذ القرارات الهامة، وتجرى النقاشات السياسية بحضور العامة، بالإضافة إلى إجراء المحاكمات بصورة علنية.

وعلى الرغم من أن هابرماس غالباً ما يؤكد على البعد المكاني للفضاء العام، فمن المهم أن نذكر أنه لا يشير إلى مكان فعلي، بل إلى نوعية ما نظرياً. فكثيراً ما يتحدث العلماء عن مجموعات مختلفة "تحتل" الفضاء العام وكأنه مكان مادي. وفي الواقع هو ليس مكاناً؛ إنها فكرة تعتمد على عوامل اجتماعية واقتصادية مختلفة، وترتبط بمصطلحات ومفاهيم مختلفة تؤثر عليها العوامل الاجتماعية والاقتصادية الرئيسية، والتي هي كذلك عوامل تلعب دوراً في تطور المجتمع المدني. ويذكر هابرماس أن مصطلح "الفضاء" يأتي أساساً من فلسفة الحق عند هيجل (1770-1831) Wilhelm Hegel*، حيث يدل على مكان إنتاج السلع وتبادلها، وحيث تحدث جميع العلاقات الاقتصادية الأخرى، ويخضع فيه المجتمع المدني للقوانين الاقتصادية (Habermas, 1991, xvii).

كما يوضح أن الفضاء العام "الحديث" مرتبط بظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية محددة. والمرحلة التي تأتي بعد الفترة الكلاسيكية أو فترة المدينة اليونانية بالنسبة لهابرماس هي "الفترة الإقطاعية". حيث أن التسلسل الهرمي الاجتماعي هو ما يميز تلك الفترة، ابتداءً من الملك في الأعلى، يليه النبلاء ثم الشعب. ولم يكن يوجد تقسيم بين القطاعين العام والخاص بالمعنى الحديث، لأن الملك هو الشيء "العام" الوحيد في المملكة. ولم توجد مؤسسات خاصة أو عامة، وبالتالي يرى هابرماس بأنه لا يمكن العثور على "أساس اجتماعي" للفضاء العام في تلك الفترة.

"كما يظهر الفضاء العام كمفهوم فلسفي يحاول أن يوضح العلاقة بين الذات المفكرة، والعاملة، والفاعلة، وبين ارتباطاتها بالآخرين، والعام الخارجي، حيث يظهر كمدخل لتوضيح الحدود بين الشأن الذاتي، والشأن الجمعي أو العام. كما يعتبر الفضاء العام مفهوماً تاريخياً يستوجب البحث في شروطه، ومكوناته، وتطوره وشروط تكونه تاريخياً" (عبدعلي، 203، ص11).

وإذا كان التأسيس للفضاء العام فلسفياً يعود لعهد الدولة الأثينية، فالفضل الأكبر يعود إلى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724 - 1804) * Immanuel Kant حيث يعود إليه فضل التفكير في العمومية Publicity، حيث ميّز بين الاستعمال الخاص والعام للعقل، ومنه توصل هابرماس ما يطلق عليه فيما بعد بالفضاء العام، وهو الفضاء المشترك للأفراد والذي يؤثر للممارسة السياسية لتوجيه الرأي العام بالفعل التواصلية. كما يدخل في مضمون الفضاء العام قضايا ومعايير كالعادلة والشرعية والقانون، وهي أمور نناقشها بالتفصيل خلال هذا الفصل.

وهنا يعتبرُ كانط هو المؤسس الفعلي للفضاء العمومي بالنسبة لهابرماس، فيؤكد هابرماس "على أن العمومية الكانطية استوجبت الانتقال من الفردية إلى الكونية على مستوى الأخلاق والسياسة، حيث هدفت هذه العمومية إلى الوصول إلى مجتمع مدني يقيم الحق على نحو شامل، بمعيار العقل العملي لتأسيس عمومية تنويرية. غير أن هابرماس وجد هذه العمومية غير كافية وحدها، فهي بحاجة للعقلية التواصلية الحوارية بين الذات، تتأسس على الحوار والنقاش والتداول بين مجموعة الذات، يركز على الاجماع بارتكازه على واقع الممارسة الاجتماعية" (العلوي، 2014، ص13).

كما يرى كانط "أن ثمة مهمةً سياسيةً منوطاً بالفضاء العام، فهو المجال الذي تتبلور فيه حركة الفكر، ويشهر سلاح النقد إزاء كل ما يتناقض ويتنافر مع الحرية والعدالة والفضيلة، وهذا المجال هو ما يستحث إليه الفلاسفة من الدولة لغرض الإدلاء بأرائهم علنا وبحرية في المبادئ العامة وذلك كله من أجل معالجة موضوع الحرب والسلام وذلك ما يفضي بالنتيجة إلى تكوين الدولة العالمية والمواطن العالمي" (كانط، 2007، ص37). وهابرماس كذلك يرى أن للمجال العام مهمةً تواصليةً وسياسيةً، ولكنه رغم ذلك يختلف مع كانط وينتقده في نظرته للمجال على أنه منفتح للجمهور حول المسائل والقضايا العامة بشكل تام وحر. حيث أصبح الفضاء العام بحسب هابرماس مُتحكماً به ومسيطر عليه من قبل السلطات والمجالات السياسية والاقتصادية والإعلامية، وهنا ينظرُ هابرماس إلى الفضاء العام بوصفه أيديولوجياً قد تكون سبباً في إفشال المشروع التنويري الذي يطمح إليه ويريد به كانط.

إن فكرة كانط في "المواطنة الكونية"* تتشابه إلى حد ما فكرة هابرماس في تصوره لفضاء عام يشكل مجالاً للنقاش والمحاكمة في حوار عقلاني ونقاش حجاجي حر، بل أن الخيار الذي يفكر به بوضوح هو "مقولة الدولة الدستورية، أي انسجام أفراد المجتمع السياسي مع المبادئ القانونية ذات الأهداف الكونية، ويتعلق الأمر بمبادئ العدالة والديمقراطية والمساواة في المواطنة وحقوق الإنسان والتي هي مبادئ لدولة القانون الحديثة" (ولد أباه، 2007، ص17).

وفي تعريفه للفضاء العمومي يقول هابرماس: "يمكن أن يفهم الفضاء العمومي البرجوازي، أولاً وقبل كل شيء، باعتباره مجالاً لمجموعة من الناس الخاصين المجتمعين في شكل جمهور، وهؤلاء الناس يطالبون بهذا المجال المقتن والمنظم من طرف السلطة، ولكنهم يطالبون به مباشرة ضد السلطة نفسها، لكي يتمكنوا من مناقشتها حول القواعد العامة للتبادل، وحول ميدان تبادل البضائع والعمل الاجتماعي، وهو ميدان يبقى خاضعاً بشكل أساسي ولكن أهميته أصبحت ذات طبيعة عمومية" (Habermas, 1991, p33).

تعتبر مساهمة هابرماس بخصوص الفضاء العام من أوائل المساهمات بخصوص هذا المفهوم في القرن العشرين، وتبرز أهمية هذه المساهمات في إعادة التفكير في مفاهيم مرافقه للفضاء العام كالشرعية والديمقراطية التشاورية وتشكيل رأي عام حر. حيث يحاول هابرماس بناء تصور تمارس فيه العملية السياسية بأفضل صورها بما يتناسب مع المرحلة في أوروبا وخصوصاً مرحلة ما بعد النازية. وفيما يلي تفصيل حول تصور الفضاء العام كما ظهرت تجلياته لدى هابرماس.

توصيف الفضاء العام البرجوازي في القرن الثامن عشر

قام هابرماس بفحص التحول الهيكلي Structural transformations في الفضاء العام الذي نشأ في أوروبا في القرن الثامن عشر. وهي محاولة ترسيم ما يسميه هابرماس "الفضاء العام البرجوازي". وهو يعرف الفضاء العام باعتباره مجالاً للناس الذين يجتمعون معا ويشكلون "الجمهور". كما يتتبع تاريخ التقسيم بين القطاعين العام والخاص من خلال الأمثلة والأحداث التاريخية في أوروبا. حيث تكون قبل المجال العام البرجوازي "العمومية التمثيلية" Representative Publicity، التي كانت موجودة من القرون الوسطى حتى القرن الثامن عشر. وشملت الملك أو الرب/السيد الذي يستعرض نفسه أمام الجمهور في المحافل العامة ومناسبات مخصصة لذلك؛ حيث كان الملك هو الشخص العام الوحيد، وكان كل الآخرين متفرجين أو "جمهوراً" (Habermas, 1991, p14).

إن من أهم مهام الفضاء العام التي يذكرها هابرماس في القرن الثامن عشر هي: استخدام الفضاء العام لإجراء نقاشات عقلانية نقدية، وكانت هذه النقاشات الحرجة تحدث داخل الجمهور البرجوازي، ابتداء من الأدب والفن، في مؤسسات مثل الصالونات والنادي والمقاهي. ويرى هابرماس أن الفضاء العام قد تطور ابتداء من "الأسرة"، ومن ثم ما يسميه "الفضاء العام الأدبي" *، حيث أصبح من الممكن مناقشة الفن والأدب للمرة الأولى. كما يؤكد هابرماس دور الفضاء العام كوسيلة للمجتمع المدني في التعبير عن مصالحه، وهذا ما ستقوم الباحثة بتوضيحه تباعاً.

تطور الفضاء العام السياسي بشكل كامل لأول مرة في بريطانيا في القرن الثامن عشر. وأصبح المجال العام مؤسسياً داخل الدول الدستورية البرجوازية الأوروبية في القرن التاسع عشر، حيث تم استخدام الرأي العام كوسيلة لملاحقة الهيمنة وانتقاد الدولة. وبعد زوال العمومية التمثيلية التي كانت سائدة في أوائل القرن الثامن عشر، ظهر الفضاء العام الأدبي، ثم تحول إلى المجال السياسي في الفضاء العام؛ حيث تركز في الدولة الدستورية البرجوازية باعتبارها المجال الفضاء البرجوازي*. وتمثل في مؤسسات خاصة مثل الدوريات، والصحافة، والمقاهي، والتي بقيت جزءاً لا يتجزأ من الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي ترتبط بها وتؤثر عليها (Habermas, 1974, p49).

ومع ذلك رأى هابرماس أن من أهم سمات الفضاء العام هو قوته وضعفه في أن واحد؛ فهو قوي بما فيه الكفاية ليكون بمثابة محاكم حقيقي لسلطة الدولة، ولكنه يظل مع ذلك معتمداً على ظروف اجتماعية واقتصادية دقيقة، ولذلك يظل وجوده مهدداً بالتغيير وهذه سمة ضعف له. وفي مرحلة تطور النظام البرجوازي الرأسمالي، عندما ظهر اقتصاد رأسمالي في أوائل أوروبا الحديثة قام أولاً من خلال تقويض الهياكل القديمة. وكان للتجارة وحركة الأخبار أدواراً أساسية في هذه العملية. فكيف ذلك؟

كانت التجارة تقوم على السلع الأساسية مثل التوابل والفحم، وهذا النوع من السلع تطلب هياكل اقتصادية جديدة؛ حيث أنشأت التجار الشركات، وبدأوا بتعزيز مصالحهم التجارية. أما عن "تجارة الأخبار" فقط كانت مرتبطة مباشرة باحتياجات العمل. حيث يحتاج التجار إلى معلومات

حول السفن، والطقس، والوضع السياسي في مختلف البلدان. وشيئا فشيئا توسعت مهمات الصحافة وأصبحت حركة الأخبار تهم عددا واسعا من الجماهير (Habermas, 1991, p18).

وفيما بعد تشكلت الهياكل الاقتصادية الجديدة للرأسمالية المبكرة والتي شكلت كذلك المجتمع المدني. حيث انفصلت الأسرة عن الإنتاج. فالايكوس/المنزل، وهي الكلمة التي ترتبط بالاقتصاد، لم تعد تتعلق بالإنتاج المنزلي وانما بنظام تبادلي تجاري عام.

وكان المجتمع المدني مرتبطا بالدولة الحديثة، كما تطورت الدولة جنبا إلى جنب مع أنواع جديدة من الأعمال التجارية والهياكل الاقتصادية. أما مكوناتها الرئيسية فقد كانت عبارة عن أنظمة جديدة للضرائب، ونظم سيطرة إدارية على السكان، إضافة إلى مؤسسة الجيش والآلة العسكرية. في تلك الفترة، وفقا لهابرماس، بدأت الدولة في اتخاذ المزيد والمزيد من الوظائف، التي باتت تؤثر على حياة الناس بشكل أكبر. وفي ذات الوقت برزت مظاهر نقاش علنية وناقدة للسلطة، وقد عبر عنها الناس أول مرة عندما اشتكوا من النظام الضرائبي. ومن هنا بدأوا يتعلمون كيفية استخدام المحاجبة والنقد بشكل علني (Habermas, 1991, p19).

كما اضطلعت الصحافة بدور هام؛ حيث تم تطوير المجالات السياسية. وكانت الحركة في الأخبار مرتبطة بالاحتياجات التجارية؛ حيث كانت الأخبار سلعة ووسيلة إخبارية. وأيضاً، بدأت الدول تستخدم الصحافة لإدارة الدولة والاستخبارات. كما تكونت طبقة جديدة من البرجوازية وأصبحت جزءا من الجمهور، والتي شملت المسؤولين والأطباء والمحامين. ويقول هابرماس أن الجمهور القارئ أصبح هو الناقل والوسيط الحقيقي وذو مكانة هامة، حتى أن هذه المكانة الهامة في المجتمع المدني أدت إلى توتر بين المدينة والمحكمة. وشجعت الدول على إذكاء الوعي بالجمهور والمجتمع بعامة في المجتمع المدني. وقد تأثرت شرائح واسعة من السكان بضوابط السياسة التجارية، وشكل الاهتمام الرسمي بالأسر والأحوال المعيشة؛ حيث كان شكل الاتصال بين السلطة المحلية والعامة يوصف بالنقدي والحاكم. حيث للجمهور أن يضطلع بهذه المهمة (Habermas, 1991, p181).

الهياكل الاجتماعية في الفضاء العام Social Structure of The Public Sphere

كان الفضاء العام البرجوازي هو مجال الأفراد الذين يجتمعون كجمهور. حيث شارك الجمهور في مناقشة أمور الاقتصاد والعمل الاجتماعي. وكان الفضاء العام مشابهة للعمومية التمثيلية؛ حيث كان للمحكمة والمدينة تأثير هام. وشكلت مؤسسات مثل الصالونات والمقاهي الفضاء العام الأدبي. وكان الفضاء العام الأدبي جسرا بين المجالات العامة التمثيلية والبرجوازية؛ فالفصل بين الدولة والمجتمع هو في الحقيقة فصل المجال العام عن المجال الخاص. حيث احتوى المجال العام على الدولة والمحكمة، أما المجال الخاص فتضمن المجتمع المدني. وقد تطور المجال العام في المجال السياسي من المجال العام الأدبي. فقد وضع الدولة على اتصال مع احتياجات المجتمع من خلال الرأي العام (Habermas, 1991, p29-30).

وقد عززت مؤسسات المقهى وصالون دور المدن، حيث ظهرت مراكز النقد الأدبي والسياسي بظهور المقاهي في القرن السابع عشر إنجلترا، والتي كانت تحظى بشعبية كبيرة في القرن الثامن عشر. وقد رعى الكتاب العديد من المقاهي، كما أصبح المقهى سببا في جلب الثقافة إلى الطبقات الوسطى. ففي الصالونات الفرنسية، التقى كل من الأرسقراطيين، والبرجوازية والمثقفين على قدم المساواة. فقد كان على الكتاب أولا أن يعرفوا بأنفسهم وبأعمالهم في الصالون قبل نشرها. وأما في ألمانيا فقد كونت المجتمعات الأدبية و"الطاولات المستديرة" المجال العام الألماني؛ حيث يجتمع الناس في وضع اجتماعي لا يشترط أن يكون متكافئا. وكان جمهور الفضاء العام الألماني بطيئا لارتباطه بالماسونية التي ادعت امتلاك العقل وكان على هذه الحركات يجب أن تبقى سرية (Habermas, 1991, p31).

وكانت تتسم أشكال الفضاء العام على اختلافها بشكل عام بما يلي:

1. تجاهل الوضع الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية للجمهور، فكل ما يهم هو سلطة الحجة الأفضل، وكانت هذه الفكرة مهمة رغم عدم تحققها في معظم الأحيان.
2. ناقش الجمهور أمورا وقضايا لم تكن تطرح للنقاش إطلاقا.
3. أصبح الجمهور من حيث المبدأ شاملا؛ حيث كان على الجميع أن يكونوا قادرين على المشاركة. وأصبح الناس قادرين على التعبير عن آرائهم حول الفن للمرة الأولى، بل اتخاذ مهنة الناقد الفني المتقدمة. وظهرت كتابة نقدية عن الفن والأدب، من خلال المقاهي الأدبية والمجلات والدوريات التي قامت بدورها برفع النقاش إلى مستويات متقدمة، وكان ذلك بالتوازي مع الجمهور "الكبير" الذي ظهر في الحفلات والمسارح البرجوازية. حيث تفاعل كبير الأدب مثل الرسائل واليوميات وسرد التجارب مع الذاتية، الموجهة نحو الجمهور. وأصبحت العلاقة بين المؤلف والعمل والجمهور حميمة (عبد العلي، 2003، ص114).

كما دعمت الصحافة الجمهور الذي نشأ من المقاهي والصالونات، حيث النقاشات العقلانية الناقدة. بعد ذلك طرأت تحولات على الفضاء العام، فمن الفضاء العام الأدبي إلى فضاء عام أكثر اتساعا وشاملا لاقتصاد السوق والسياسة. وكانت بداية المناقشات الجادة حول السيادة المطلقة وسياسة الدولة السرية في بعض الأمور. وتطور الوعي السياسي في المجتمع المدني الذي طالب بمناقشة القوانين العامة، بصفته المصدر الشرعي الوحيد لهذه القوانين. وقد شكل الجمهور في الفضاء العام نوعا من الناس، فمثلا تم استبعاد النساء والمعالين من الفضاء السياسي العام ولكنهم شاركوا في الفضاء الأدبي. ولكن على المستوى الذاتي، كان الفضاء العام واحدا وغير قابل للتجزئة.

والأسرة هي أول هيكل اجتماعي واقتصادي هام؛ وكذلك تعتبر الأسرة النووية البرجوازية أبوية، أو يهيمن عليها الذكور. ومع ذلك، فهي المعبر الأول للأفراد للمشاركة المجتمعية، حيث توفر الأسرة المؤهلات الاقتصادية والتدريب العاطفي اللازمة للمشاركة في الجمهور. وللأسرة حكمها الذاتي ولها ممتلكاتها التي تعطيها درجة من الاستقلال، وهي أيضا محمية بموجب قانون

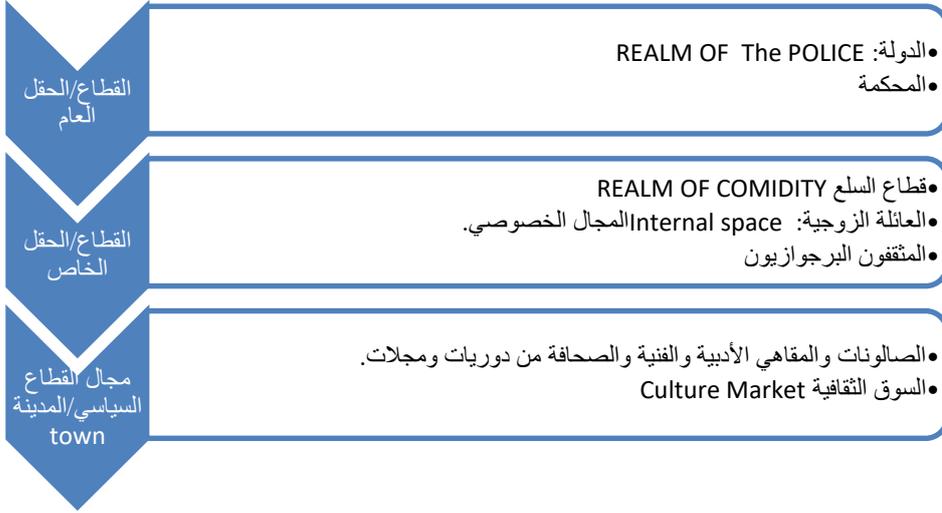
خاص ضد تدخل الدولة. ولا يمكن للدولة أن تتدخل في ملكيتها الخاصة، وهذا يجعل الأسرة مستقلة بشكل قوي، وبالتالي فإن الاستقلالية التي تمنحها الملكية الخاصة هي المؤهلات الاقتصادية اللازمة لشخص للانضمام إلى الجمهور. وكذلك يرى هابرماس أن الأسرة توفر أيضا للفرد تدريبا عاطفيا معيناً يعده للتفاعل داخل الجمهور؛ فالأسرة هي مصدر الذاتية أو الفردية والخصوصية. وهذه الذاتية تعتبر جزءا مهما من خاصية الجمهور في الفضاء العام. لذلك فإن البرجوازية تحتاج إلى المؤهلات الاقتصادية والاستعداد العاطفي للجمهور للمشاركة.

والهيكل الرئيسي الثاني بعد الأسرة هو؛ الفضاء العام الأدبي وهو بمثابة جسر بين العمومية التمثيلية والفضاء العام البرجوازي. إن الفضاء العام الأدبي يعد الناس للتفكير السياسي من خلال منحهم فرصة لمناقشة الفن والأدب بشكل ناقد. ومن ثم يتطور الأمر إلى تحدى الجمهور في انتقاد سلطة الدولة. ويتم الترويج للمناقشة العامة للأدب والفن وخاصة من قبل المجالات والدوريات النقدية، فالمؤسسات والهيكل الاجتماعية المختلفة التي تنمو داخل المدن هي من تعزز النقاش النقدي وتستخدم العقل (Habermas, 1991, p43).

وكانت الصالونات اختراعا قاريا ظهر في أوروبا، وربما أكثر حصرياً اجتماعياً من المقاهي. فمثلا التقى الكتاب والمتفنون الفرنسيون في منازل شخصيات المجتمع الأخرى لمناقشة ومناقشة. يقع الصالون تقليدياً داخل المنزل، في المجال المحلي. وبالمثل، كانت نوادي القراءة الألمانية مقصورة على جمهور قراءة البرجوازية أكثر قليلاً. وفي كل هذه المؤسسات، كان الموضوع الرئيسي نقاشاً حرجاً حول الأدب ومواد القراءة. ويؤكد هابرماس أن الجميع غير مهتمين بالوضع الاجتماعي، وتناولوا أسئلة "لا يمكن تصورها" وكانوا شاملين من حيث المبدأ. هذا صحيح إلى حد كبير، ولكن يجب أن نتذكر أنه لا يزال يتحدث عن الجمهور المتعلم، البرجوازية، وليس عن كتلة المجتمع (Habermas. 1974. p50).

العنصر النهائي، وربما الأهم، هو الانتقال من الفضاء العام الأدبي إلى الفضاء السياسي. حيث تحول الجمهور الذي تم تشكيله في المقاهي والصالونات ومجموعات القراءة لمناقشة المسائل السياسية مباشرة. يرى هابرماس جذور هذه المناقشة السياسية في الاستجابات التقليدية للسيادة المطلقة وقوة الملوك. إن الفضاء السياسي العام ليس مجرد نقاش حول السياسة، التي من المفترض أن تحدث قبل القرن الثامن عشر، ولكن مناقشة منسقة وعقلانية حول المسائل السياسية التي تؤثر على جزء معين من المجتمع. يرى هابرماس هذه المناقشة كأفكار واحتياجات "المجتمع المدني" ممثلة أمام السلطة العامة.

مؤسسات الفضاء العام The Institutions of public sphere



كان العامل الرئيسي في تحويل الفضاء العام الأدبي إلى قوة سياسية هو الصحافة؛ حيث بدأت المجالات الحرجة تنشر مقالات سياسية، وفي نهاية المطاف ظهرت وعلى وجه التحديد الصحف والمجلات السياسية. حيث أكد هابرماس على أن قوة الصحافة هي من ساهمت في التحولات على الفضاء العام من شكله "الأدبي" إلى السياسي. "أما الوظائف السياسية في الفضاء العام السياسي فقد نشأت لأول مرة في بريطانيا في مطلع القرن الثامن عشر، حيث أصبح الفضاء العام الأدبي سياسياً في القارة فقط عندما تقدمت المرحلة الرأسمالية للإنتاج أكثر. وقد برز الصراع في بريطانيا بين المصالح الواسعة للتصنيع والمصالح التقيدية لرأس المال (Habermas, 1999, p43).

والواقع أن الوظيفة الفعلية للفضاء العام لا يمكن فهمها إلا فيما يتعلق بمرحلة محددة من تنمية المجتمع المدني، حيث يجري تحرير التبادل والعمل إلى حد كبير من سيطرة الحكومة. كما أعطي الفضاء العام حيزاً سياسياً وأتيحت له إمكانية صياغة المجتمع المدني. بل وله شروطه في سوق متحررة، والخصخصة الكاملة الخاضعة للتنظيم التجاري للمجتمع المدني.

يحلل هابرماس هياكل وتشغيل الفضاء السياسي العام. غير أن الجزء الأول من هذا القسم يأخذ نهجاً تاريخياً معيناً. كما يحاول هابرماس تفسير الطبيعة غير العادية للسياسة الإنجليزية في القرن الثامن عشر، على أساس التطورات الاجتماعية والاقتصادية؛ حيث حدثت بعض التغييرات السياسية والهيكلية في انكلترا بعد الثورة المجيدة لعام 1688 التي كانت تحبذ بشكل خاص النقاش العام النقدي، ووضع نهاية للرقابة، والتغييرات الاقتصادية والسياسية التي تضع أولوية رأس المال والبرلمان.

كما أن تطور الصحافة في القرن الثامن عشر في انكلترا كانت بمثابة قناة للرأي العام، وأيضاً كوسيلة لتشكيل الرأي، ويعتقد هابرماس أن الصحافة الإنجليزية مؤسسة لتشكيل النقاش العام النقدي. حيث نما الرأي العام وتطور تأثيره على السياسة بشكل مطرد في انكلترا، وهو ما يفوق بكثير التطورات في أوروبا. وكانت العلاقة بين البرلمان والرأي العام مرتبطة، لأن الأحزاب البرلمانية في القرن التاسع عشر بدأت تعتمد على تعبئة الجمهور، وأصبحت بالنسبة لها مصدر قوة وأهمية (فونيسكا، 2004، ص1147).

يتحرى هابرماس معالجة لعملية ووظيفة الفضاء السياسي العام، كما يبين الشروط الاجتماعية والاقتصادية المسبقة لوجوده. غير أنه يقيم هذه المرة صلة بين المجتمع المدني والفضاء العام. حيث يعتمد الفضاء العام على المجتمع المدني، لأنه يعبر عن مصالحه، كما أنه خال من التدخل الحكومي، وينظم بقوانينه الخاصة.

لقد كانت الدولة الدستورية البرجوازية تعبر عن التطور التاريخي للفضاء العام، حيث أن استجابة الدولة لتطور الفضاء العام، هو إضفاء الطابع المؤسسي على الفضاء العام كجزء من أجهزة الدولة. وكما يقول هابرماس أن الجمهور يهدف إلى أن يكون مصدراً لسلطة القوانين العامة. وقد حققت الدولة الدستورية البرجوازية هذا الهدف من خلال ربط الرأي العام بالقانون. فالرأي العام مرتبط بمناقشة نقدية عقلانية؛ ومن خلال ربطه بأقوى جانب من جوانب الدولة، إذ يمكننا أن ندعي بأن الدولة ليست هي القوة الوحيدة المهيمنة. ولذلك فإن الدولة الدستورية استخدمت الفضاء العام كوسيلة لإضفاء الشرعية على سلطتها. وفي المقابل، فإن وظائف الفضاء العام تحميها التشريعات التي تنص على "الحقوق الأساسية". حيث يرى هابرماس الحقوق التي تشكل أساس معظم الدول الدستورية بأنها تحمي جوانب مختلفة من الفضاء العام (Habermas, 1999, p176).

ثم يعود هابرماس إلى فكرة "الوصول الشامل" وكيف يمكن أن يكون الفضاء العام "عمومياً" حقاً إن لم يكن جميع الناس مشمولين؟ هذه هي المشكلة المركزية التي يعاد طرحها باستمرار. وكانت الإجابة التي طرحها في القرن التاسع عشر على هذه المشكلة؛ هي أن تقييد إمكانية الوصول إلى الفضاء العام يمكن تبريره بظروف المجتمع المدني من حيث قوته أو ضعفه، وإذا ما سمحت الظروف الاقتصادية للمجتمع المدني من الناحية النظرية؛ بحيث يحق لكل شخص امتلاك الممتلكات والمشاركة في الفضاء العام وقتئذ. ولما كان المجتمع المدني منفصلاً بشكل صارم عن الدولة، فإن الدولة نفسها لا تستطيع تغيير هذه الظروف. حيث يرى هابرماس إلى أن التناقضات داخل الدولة البرجوازية الدستورية تنذر بزوالها (محمداي، 2011، ص54).

التحول الاجتماعي الهيكلي* في الفضاء العام The social Structure transformation of the Public Sphere

لم تؤد زيادة تدخل الدولة في القرن التاسع عشر إلى ترابط الفضاء العام مع القطاع الخاص. ونقلت التدخلات إلى صراعات على المستوى السياسي لا يمكن تسويتها في المجال الخاص. وقد تم تدمير أساس الفضاء العام البرجوازي - الفصل بين الدولة والمجتمع - ومنذ عام 1873، طرأت تغييرات على السياسة التجارية، وتم التخلي عن مبادئ التجارة الحرة، وأصبحت عمليات الاندماج

واحتكارات القلة متزايدة في الأسواق المحلية وأسواق رأس المال. وقد ساد تقييد المنافسة في الأسواق الدولية للسلع الأساسية. وفي أواخر القرن التاسع عشر، اضطر المجتمع إلى التوقف عن المطالبة بأنه مجال خال من السلطة. وقد كشفت بصورة متزايدة عن البنية العدائية للمجتمع المدني؛ كلما أصبح المجتمع أكثر ارتباطاً بالإكراه. وطالما كانت الدولة ليبرالية، لم تكن مهتمة بتغيير العلاقة بين القطاعين العام والخاص. بل إن الحاجز بين الدولة والمجتمع تآكل. وقد دفع هذا التآكل الضعفاء اقتصادياً إلى استخدام الوسائل السياسية ضد منافسين أقوى في السوق. وتشارك الدولة في أنشطة جديدة؛ مثل تعزيز الطبقات الوسطى وتخفيف وطأة الفقر. كما افترضت الدولة توفير الخدمات التي كانت خاصة في السابق؛ تدخلت في مجال العمل وتبادل السلع تم تشكيل مجال اجتماعي غير متحيز، حيث اندمجت مؤسسات الدولة والمجتمع في مجمع واحد لم يكن عاملاً أو خاصاً بالكامل. وأعرب أيضاً عن هذا الترابط الجديد في انهيار النظام التقليدي للقانون. تغيرت حالة القانون الخاص برمتها، و"هربت" الدولة من القانون العام. ونقلت مهام الإدارة العامة إلى مؤسسات ووكالات في القانون الخاص (Habermas, 1991, p147).

وقد أصبح فقدان المجال الخاص وفقدان إمكانية الوصول إلى المجال العام حاضراً في المجتمعات الحديثة. وأصبح نمط الترفيه مسيطراً على النقاش العقلاني النقدي. وقد استعير عن الفضاء العام الأدبي بالعالم شبه الزائف والخاص من الثقافة. حيث انتشر الفضاء العام الأدبي في عالم الاستهلاك، وحل السلوك الترفيهي الاستهلاكي محل النقاش النقدي العقلاني. وتم استبدال الخصوصية الحقيقية وحلت محلها ثقافة مصنوعة. ومنذ القرن التاسع عشر، أضعفت المؤسسات التي تضمن تماسك الجمهور الذي يشارك ويناقش نقاشات حادة ونقدية. كما جرى مراقبة وتنظيم المناقشات المتبقية بعناية وبالتالي فقدت وظيفتها العلنية (Habermas, 2001, 151).

وهنا يعالج هابرماس مرة أخرى التاريخ والهيكل الاجتماعية في رسم لتراجع وانحطاط الفضاء العام في الفترة الحديثة. ويجادل بأن هذا الانخفاض يرجع إلى مجموعة متنوعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية.

يستخدم هابرماس مصطلح "إعادة النظر/التفكير" للنظر في العلاقة بين الدولة الحديثة والاقتصاد؛ حيث بدأت الدولة في تولي الوظائف الاقتصادية للمجتمع المدني، وبدأت مصالح المجتمع في الانخراط في الدولة. وأصبحت الحدود بين الخاص والعام غير واضحة واختلطت بشكل كبير (Johnson, 2001, p215).

كما تدخلت السياسات الاقتصادية كعمليات الاندماج، واحتكار القلة من الرأسماليين. ولأن المجتمع المدني يعتبر ساحة للحرية الاقتصادية والشخصية فإنه يتأثر بالتدخل الحكومي المستمر. ولكن الحكومة ذاتها تعتقد أن لها مبررات لهذا. وكما يقترح هيجل، فإن الطبيعة الفوضوية والعدائية للمجتمع المدني تتطلب تدخل الدولة، أما هابرماس فلا يعتقد أن تدخل الدولة وحده يشكل حاجزاً بين المجتمع والدولة؛ بل هناك مجموعات المصالح الاقتصادية في المجتمع المدني التي تشكل قوة ضاغطة في صراعها في المجال السياسي (Habermas, 1991) p150.

وتغيرت ظروف العمل وأصبح الناس يعملون مع شركات كبيرة. ولم يعد العمل الحر هو القاعدة. وقد اكتسب العمال مركزهم داخل المنظمة بدلا من أن يكون لهم استقلالية في المجال الخاص. وأخذ الترفيه هو الآخر بالتطور. حيث تم استبدال النقاش العقلاني النقدي بالمشاركة في المجتمع المحلي ومجموعة من الأنشطة غير السياسية وغير النقدية، وأصبح استهلاك المنتجات والخبرات مرتبطين بالترفيه. وأصبح دور الجمهور يتمثل في تلقي مواد من وسائل الإعلام وتطورت مجموعة جديدة كاملة من العلاقات الثقافية، بوسائل اتصال متعددة ومتنوعة، وأصبح الجمهور يفتقر إلى الحكم الذاتي الذي تمتع به سابقا من مناقشة نقدية عقلانية. وعلاوة على ذلك، فإن وسائل الإعلام أخذت تعتمد على الاستهلاك الثقافي. وقد انهار النقاش النقدي الحاسم ببطء مع تغير المؤسسات التي تعززه. يعتقد هابرماس، أن الجمهور أصبح يفضل مشاهدة التلفاز بدلا من الحديث عن الصحف في مقهى؛ أي أن التغيير المؤسسي يقابله تغيرات في سلوك الناس أنفسهم. وتلاشت الفروقات بين المثقفين وغيرهم حيث أصبح معظم الناس يستهلكون فقط. فأولئك الذين هم أكثر تعليما لا يناقشون أو ينتقدون في الأماكن العامة أو يضطلعون بمسألة تنوير الآخرين.

والملاحظة الأكثر خطورة لهابرماس في هذا السياق هي أن البروباغندا/الدعاية أنشئت بشكل متعمد للتلاعب بالناس، وإن الآراء "غير العامة" لمجموعات معينة من أصحاب المصالح تستحوذ على الفضاء العام، وتختفي هنا كل إمكانية النقاش العقلاني (Johnson, 2001, p116).

يريد هابرماس أن يثبت هنا أن الفضاء العام الليبرالي والبرجوازي يعتمد بشكل مطلق على بعض الظروف الاجتماعية والاقتصادية. وبمجرد أن تتغير هذه الظروف، لا يمكن ضمان تكوين الجمهور وطبيعة النقاش السائد ونوعه بأي شكل من الأشكال. حيث إن ظهور الاستهلاك الثقافي والترفيه، هو مصدر قلق رئيسي ليس لهابرماس وحسب وإنما مدرسة فرانكفورت، حيث إن تأثير أفكار ثيودور أدورنو حول الثقافة الحديثة واضح في هذا السياق ويوافق هابرماس على ذلك. وسنقوم بتوضيح هذه النقطة منفردة في مبحث لاحق.

تحول الوظيفة السياسية في الفضاء العام Function of the Public Sphere

يستند التحول في وظيفة البروباغندا/الدعاية إلى تحول في وظائف الفضاء العام. ويمكن رؤية هذا التحول بوضوح في مؤسسته الرئيسية - الصحافة. حيث أصبحت الصحافة تجارية على نحو متزايد. ومع تطور الصحافة، أضيفت وظيفة سياسية إلى وظيفتها الاقتصادية؛ حيث أصبحت الأوراق قادة وحاملة الرأي العام. وحدث ذلك عندما تطورت الدولة الدستورية البرجوازية وأصبحت الصحافة تركز على تحقيق الربح. وكانت الأعمال الإعلامية مهمة في هذا التطور (Habermas, 1991, p183).

بدأت الصحافة في تشكيل نقاش نقدي، بدلا من نقله. وبما أن الصحافة تتأثر بالإعلان، فإن الأشخاص الخاصين بوصفهم مالكي الممتلكات يتأثرون بالقطاع الخاص كجمهور. وقد رسم هابرماس تاريخ الأعمال الإعلامية، وهو يجد أن الإعلانات الاقتصادية حققت وعيا بطابع سياسي في مجال العلاقات العامة. وتسعى العلاقات العامة مباشرة إلى التلاعب بالرأي العام، وجعل الناس

يتوهمون بأنهم يشكلون رأياً نقدياً ويعبرون عنه بكل حرية، وفي الحقيقة فإن الدعاية تعني فرض الهيمنة السياسية.

وبما أن الشركات تجعل المستهلكين يشعرون بأنهم مواطنون عند استهلاكهم، فإن على الدولة أن تتعامل مع مواطنيها مثل المستهلكين. أي تشكيل جهاز ثانٍ تم تطويره لتلبية احتياجات الدعاية للدولة والمؤسسات الأخرى. وقد اقترضت بيروقراطية الدولة تقنيات إدارة الرأي، واستولت جماعات المصالح المجتمعية على بعض الوظائف البيروقراطية، وهذه الجمعيات ذات المصالح الخاصة هي عبارة عن جمعيات خاصة ذات سلطة سياسية كبيرة. ويحتوي الفضاء العام الذي أعيد تشكيله على منظمات كبيرة تدير مواقعها وتنتشرها (فرانك، 2009، ص86).

يتعامل هابرماس مع الصحافة كدراسة حالة للتغيرات التي حدثت في الفضاء العام. ويبين كيف تطورت الوظائف الاقتصادية والسياسية للصحافة معاً. وكان كسب المال وتشكيل أو التعبير عن الرأي العام مرتبطاً بطرق معقدة، حيث أن تاريخ الصحافة يعكس تاريخ الدولة والمجتمع. وحيث بدأت الصحافة كمؤسسة خاصة رئيسية للمناقشات النقدية العقلانية؛ هي ذات الوقت محمية من سيطرة الدولة لأنها مملوكة ملكية خاصة. ومع ذلك، فإن تطور السياسات الإعلانية غير هذا الوضع.

والإعلان هو تمثيل المصالح الخاصة للجمهور في محاولة للتأثير على الجمهور، وهو يمثل طمسا للقطاعين الخاص والعام، ويأتي نتيجة لهيمنة المصالح الخاصة في الفضاء العام، أما العلاقات العامة فهي ابن الدعاية الذي يعمل بخفية أكثر، كما ينطوي على التلاعب المباشر بالرأي العام (الأشهب، 2004، ص205).

في نهاية المطاف، تآكل الفضاء العام البرجوازي بسبب التغيرات الاقتصادية والهيكلية؛ بسبب عدم وضوح الحدود بين الدولة والمجتمع، واختلط مجال كل من الدولة والجمهور بعضه ببعض؛ وانهار المجال الخاص في حد ذاته. وقد استعويض عن السمة الرئيسية للفضاء العام - النقاش العقلاني الحرج - بالترفيه، ولم يعد الشعب الخاص موجوداً كجمهور لأصحاب الأملاك. يقول هابرماس إن عالم وسائل الإعلام رخيصة وقوية، فهي تحاول التلاعب وفي ذات الوقت خلق الجمهور، وصنع توافق في الآراء. وهذا واضح بشكل خاص في السياسة الحديثة، مع ظهور تخصصات جديدة مثل الدعاية والعلاقات العامة. وأصبحت هذه المنظمات غير الحكومية الكبيرة تحل محل المؤسسات القديمة في الفضاء العام. حيث إن الفضاء العام بدأ يأخذ جانبا إقطاعياً، يمثل فيه السياسيون والمنظمات أنفسهم أمام الناخبين. وما زلنا بحاجة إلى فضاء عام قوي لمناهضة الهيمنة من جانب الدولة والمنظمات غير الحكومية (Habermas, 1991, p244).

التمييز بين الفضاء العام والخاص The Private and Public Realm

لقد ظهرت ثنائية العام والخاص لدى اليونان الذين ميّزوا بين النشاط السياسي و"الترابط الطبيعي" المتمحور حول الأسرة، ومن ثم المدينة بوليس-إيكوس، ومن هذا المنظور تتوفر للإنسان حياة ثانية تضاف إلى حياته الطبيعية، بحيث ينتمي كل فرد لمستويين من الوجود يعبر أحدهما عن

نمط عيشه الخاص، ويعبر الآخر عن نمط عيشه المشترك. يقوم نظام الأسرة على الأمر والطاعة والسلطة المطلقة، ويقوم نظام المدينة على الإقناع والمشاركة. ويعتبر الفضاء العمومي في المدينة اليونانية هو مجال الحرية التي يتمتع بها مواطنون متساوون، وتعني الحرية هنا الانعتاق من ضرورات الحياة، ومن السلطة المهيمنة، في حين يسود التحكم المطلق والسيطرة التامة في المنزل والأسرة. ومع العصور الحديثة انمحت هذه الحدود بين الخاص والعام، وتغيرت حدودهما بانبتاق أفق جديد هو الأفق "الاجتماعي social"، الذي أصبح يأخذ دلالة الأفق السياسي. انتقل مفهوم الخاص من دلالاته المرتبطة بالتسيير التحكمي الإطلاقي في المنزل إلى دلالة "الحميمي" المتعارض مع البعد الاجتماعي (الذي لم يكن معروفاً لدى اليونان دون تضارب مع البعد السياسي ذاته (ولد أباه، تسامح، 2013).

أما كانظ فيقدم استخدام مختلف لمفهوم الاستعمال العمومي للعقل حيث يقول أن هذا الاستعمال هو مجال الحرية والتفكير والحق في إبداء الرأي وتشكيل رأي عام، ومشاركة في التداول في سبيل تحقيق الإجماع. وهذه الحرية حرية غير مقيدة بأي عقلية متحجرة، بل هي خالية من أي وصاية خارجية معطلة لقدرات الذات. وهذا يحيلنا إلى تفصي مجال استخدام العقل في مجال الحرية من محورين، أحدهما رسمي مؤسسي، والآخر غير رسمي، وهو على الأغلب العقل النقدي للعقل الأول. فمن حق الأول أن يفكر، ومن حق الثاني كذلك أن يفكر وينتقد. ويمكن أن نحيل هذه الإشكالية إلى ما سماه هابرماس بصراع الكليات، وفيه ينبغي للعقل وحده أن يضمن الحق في التعبير عن الحقيقة عموماً؛ لأنه دون الحرية لا يمكن للحقيقة أن تتجلى (Habermas, 2001, p34).

إن كل من المجال العام والمجال الخاص؛ هي المفاهيم التاريخية المركزية للتحوّل الهيكلي في الفضاء العام الذي يركز عليه هابرماس. ويصف هابرماس العلاقة بين القطاعين العام والخاص بالدينامية والمعقدة. حيث يتتبع المفهومين ابتداء من اليونان القديمة، ومن ثم من خلال العصور الوسطى، وتحوّل هذين المفهومين بتأثير الظروف الاقتصادية والاجتماعية. ويتعلق "العام" بالسلطة العامة للدولة؛ وأما "الخاص" فيتعلق بالأسرة والمجتمع. حيث يتم تعريف القطاعين العام والخاص وفصلهما من حيث القانون والمؤسسات. وإن التحوّل الرئيسي الذي يراه هابرماس في العالم الحديث هو فقدان التمييز بين المصطلحين. حيث يتم استبدال القطاعين العام والخاص بمجمع "مجتمعي" ضخم واحد مثل الدولة الإقطاعية في العصور الوسطى.

يجدر هنا الإشارة إلى حنا أرنت (Hanna Ardent)*، الفيلسوفة المتخصصة في الفلسفة السياسية، والتي ميّزت بين الفضاء العام والخاص. ترى أن تآكل وانحدار الفضاء العام في المجتمع الحديث، هو هبوط يواكبه هبوط في الحرية والفكر. وترى أن الحرية والفكر يتوقفان على الفصل بين الحياة السياسية كمجال عام والحياة الاجتماعية كمجال خاص. فالمجال الخاص يعطي الفرد الحيز الذي يحتاج إليه للتفكير ويحميه من هيمنة المجال العام. وأرنت ترى أن المدينة اليونانية بديمقراطية المشاركة التي سادت فيها حققت للفرد مجالاً خاصاً يستطيع من خلاله التفكير، والتأمل، والاختيار، وتحكيم الضمير، وفهم معاني الأمور.

أما في المجتمع الصناعي الحديث فقد اندمج المجال الخاص بالعام، بمعنى أنه لم يبق من الخاص شيء سوى أنه تحوّل فيه الفكر والعقل إلى مستوى الإنتاج والاستهلاك. و"ساهم هذا في ظهور نزعة الاغتراب واللامعيارية والذرية التي يقود كل منها إلى نشوء الدكتاتوريات التقليدية. فكل المجالات بين العام والخاص تخضع لهيمنة الدولة التي تتغلغل في مناحي واسعة وبهلامية شديدة، دون أن نقدر على تحديد مركز سلطتها". (المسيري، ص14)، "ولا وجود للحرية في غياب الفضاء العام الذي هو ملتقى واجتماع وحرية قولاً وفعلاً، فالفضاء العام هو شرط إمكان الحرية ونمط التفكير" (Arendet, 2007, p67).

دلالات وأنماط الفضاء العام

رأينا مما سبق أن التفكير في الفضاء العام هو "تفكير الفرد/المواطن الحديث في مجموعة الأطر الاجتماعية والسياسية والتحول التاريخي. وهذا يشمل مجموعة أفعال الفرد/المواطن في المجتمع، من عملية الاندماج المجتمعي، إلى مشاركته في الحياة السياسية، ومساهمته في تدعيم وتعزيز الديمقراطية، وهي الأمور التي شغلت اهتمام هابرماس، وحاول تقديم اسهاماته لتحقيقها، وهذا يقودنا تلقائياً إلى التمييز أولاً: بين الفضاء العام الذي يشمل الدولة ومؤسساتها، وبين الفضاء الخاص الذي له علاقة بالفرد، وحياته الشخصية، وحقوقه وممارساته المدنية" (عبدالعلي، 2013، ص212).

قام هابرماس بتحليل الفضاء العام في القرنين الثامن والتاسع عشر، على أنهما فترة صعود الفضاء العام على يد الطبقة البرجوازية آنذاك. كما رصد مجال وأماكن اشتغال الفضاء العام، من صالونات أدبية وجرائد ومجلات رافقت ظهور البرجوازية مع التطور الاقتصادي، على مستوى الإنتاج وتطور السوق الرأسمالية الصناعية. ومن ثمّ ازدياد احتياج البرجوازية لوسائل الدعاية من أجل إعادة توجيه المجتمع وقيادة العقل ونزع ما علق به تحت سطوة (الفكر القروسطوي) * وإعادة تفعيل الأدوار السياسية والاجتماعية ضمن الفضاء العام، حيث كانت ترى البرجوازية أن هذه الآليات التي ستسهم في تحقيق طموحاتها والحفاظ على صعودها. كما يتناول هابرماس الفضاء العام على أعتاب الدولة الحديثة، وتحديدًا مرحلة الثورة الفرنسية (فيلستون، 2005، ص28).

وقد استخدم هابرماس المنهج التاريخي التحليلي؛ لتحليل ورصد مفهوم وبنية الفضاء العام، من حيث تكوينه، وتحولاته المرتبطة بالوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وكذلك وظيفته الأساسية من احتجاج وإقناع ونقاش وتداول، وتفاعله مع عناصر بنية المجتمع البرجوازي، وكذلك ارتباطه بالرأي العام، وطرق اشتغاله في اتجاه قبول الخضوع والهيمنة للسلطة أو اشتغاله كقوة مضادة لها. والأهم من ذلك أن الدائرة العمومية أو الفضاء العام؛ هما مجال تشكل الرأي العام النقدي للجمهور، باعتبار الجمهور حاملاً للرأي العام ذي الوظيفة النقدية. وفي معرض تناول هابرماس لمفهوم العمومية، يُبرز هابرماس مفهوماً آخر، وهو المفهوم المؤثر على الفضاء العام، وتوجيه الرأي العام، وهو مفهوم الدعاية "البروباغاندا" المؤثرة في العالم المعيش، وعلى الأفراد من خلال التحايل والتزييف والمغالطة عبر وسائل الإعلام. ويستخدم "النظام" (الدولة ومؤسسات

السلطة) الدعاية بهدف إحكام سلطتها السياسية، وبمعنى آخر محاولة التأثير في المجال العام، وإظهار مدى التطابق بين برنامج السلطة وبين مطالب ومتطلبات الأفراد. والدعاية تكون هنا وسيلة وأداة تستخدمها الدولة الحديثة لتوجيه عقول الناس، وصناعتها، والتحكم بها، وإفراغها من المحتوى النقدي (Shenlton, 2003. p22).

"كما يتخذ مفهوم الفضاء العمومي دلالات عديدة ومتنوعة في المجتمع، وأهمها الدلالة السياسية؛ أي نمط اجتماع الأفراد في المدينة وكيفية تنظيمهم لشؤونهم ولكيفية استعمالهم لمواهبهم الذهنية والجسدية؛ أما الدلالة الاجتماعية فلأن الفضاء العام يمثل مساحا لكل البنى الاجتماعية من جهة مكوناتها ووظائفها وكيفية تفاعل عناصرها. وبالتأكيد ثمة دلالة اقتصادية؛ لأن الفضاء العمومي هو أيضا مجال لتبادل السلع والبضائع وحل مشكلات التوزيع. وأما حيث يتعلق الأمر بالإنتاجات الرمزية اللغوية والأدبية والفكرية، فنحن إذن نتحدث عن الدلالة الثقافية التي يوزعها الفضاء العام حيث تتبع هابرماس حركة الصالونات الأدبية والنقاشات الفكرية الدائرة. أما عن الدلالة الأخلاقية، فالفضاء العمومي يحتاج إلى توجيه الإنسان لذاته فكرا وعملا، وهو ما ليس ممكنا إلا بفضل معايير أخلاقية معينة يحددها هابرماس فيما بعد في قواعد أخلاقيات المناقشة.

بقي أن نذكر الدلالة الأنطولوجية: "وتتعلق بالمجال الذي يوجد فيه الكائن؛ حيث الوجود المشترك من أجل العيش المشترك، فوجود الفرد داخل الفضاء العمومي هو وجود الكائن داخل مجال مؤسس على مبادئ ومحكوم بقيم حارسة للإنسانية. والفرد يتمتع في هذا الفضاء بكل حرياته المتاحة والتي تتسجم مع العقل من أجل تنظيم هذا المجال تنظيما محكما يجعله متأرجحا بين المجتمع والدولة" (العلوي، 2014، ص1-16).

انتقادات مفهوم الفضاء العام وتحولاته لدى هابرماس

لقد توالت التحليلات والانتقادات وكذلك الشروط حول مفهوم الفضاء العام بين أوساط الباحثين والمفكرين في الفلسفة العلوم السياسية وعلم الاجتماع، وكنا قد ذكرنا أن هابرماس قد اهتم بموضوع الفضاء العام وخصوصا فيما يخص الفضاء السياسي، والبحث في سبب انحدار النموذج الديمقراطي وممارسة الحريات والمشاركة السياسية في المجتمعات الغربية الحديثة، وبالطبع دلل على ذلك من خلال دراسة تحليلية تاريخية للمجتمعات الأوروبية والتحويلات السياسية والاجتماعية التي أصابتها.

ونستطيع أن نجمل الانتقادات من عدة أوجه، وأولها: نقد تصور هابرماس للتطور التاريخي ونشوء الفضاء العام، ثانيا، نقد مفهوم الفضاء العام وحقيقته، وثالثا، نقد الحالة المثالية للفضاء العام أي الميزات التي يجب أن يكون عليها الفضاء العام بحسب هابرماس.

وأتناول هنا أهم المفكرين الذين وجهوا انتقادا لهابرماس ومنهم؛ أرماندو سلفاتور (Armando Salvatore) وهو مفكر وعالم اجتماع إيطالي، انتقد سلفاتور حيثية تطور الفضاء العام في أوروبا لدى هابرماس، فكيف يحصر هابرماس الفضاء العام بأنه "غربي" ويعتبره كذلك منبثا أحداثا غربيا. فكيف لا يكون له جذور وتراث لحضارات ومجتمعات غير أوروبية ساهمت

حقيقة في تكوين الفضاء العام بحسب سلفاتور. أما بالنسبة لمفهوم الفضاء العام عند سلفاتور فلم يختلف كثيرا عن تعريف هابرماس، ولكنه يركز إلى حد ما على علاقة الأفراد ببعضهم داخل المجتمع ومن ثم على علاقة الأفراد بالدولة أكثر من تركيزه على الأفراد كفاعلين عقلانيين مستقلين. "ولكن الاختلاف الأكبر في تصور سلفاتور للفضاء العام يتمثل في رؤيته لأصول ظاهرة المجال العام وتطورها؛ حيث يرى سلفاتور أن الفضاء العام ليس ظاهرة حديثة لم تكن موجودة من قبل العصر الحديث، كما أنه ليس ظاهرة قاصرة على المجتمعات الغربية فحسب بل وجدت في مجتمعات وحضارات أخرى، ومن ثم يركز سلفاتور على دراسة تاريخ المجال العام صعودا وهبوطا في ثقافات مختلفة أوروبية مسيحية وشرقية إسلامية، بالتركيز على دور التراث في رسم خريطة التطور، حيث يرى أن فكرة الفضاء العام في صورتها الحديثة ذات جذور سابقة في صور مختلفة في التراث. وأن هذه الصور المختلفة من التراث تؤكد وجود بدائل تاريخية للطريقة التي تشكلت بها العلاقة بين المجتمع والسلطة لتكوين الفضاء العام" (عبد المحسن، 2015، ص3).

من جهة أخرى انتقد مفكرو ما بعد الحداثة ومنهم الان ماكي "Alan Mckee" * في كتاب له عن الفضاء العام تحت اسم "The public sphere: an introduction" *، حيث انتقد رؤية هابرماس حول الفضاء العام وسماته من ناحية مثالية أو بشكل مثير للعواطف، بينما يجب التعامل مع الفضاء العام من حيث القضايا الجادة المثارة، وأن يتم تناولها بشكل كامل غير قابل للتجزئة الثقافية أو الدينية بشكل عقلاني. وفي حين يرى هابرماس أن الفضاء العام يشهد في أيامنا هذه تدهورا وتراجعا بسبب طغيان السوق الرأسمالية وضخامة حجم الاستهلاك، فإن ماكي يرى أن "ظهور بعض القضايا الخاصة وغير السياسية مثل قضايا العمال والعنف الأسري في المجال العام أمر إيجابي طالما سعى البعض إلى تحقيقه منذ عقود، وخضوع الفضاء العام لمطالب السوق يعني التعبير عن أنماط الثقافة لدى المنتمين للطبقة العاملة، كما أن طرح قضايا أقل عمقا أمر مهم لإدارة النقاشات العامة التي يشارك فيها المواطنون العاديون، والتعدد خطوة مهمة نحو السماح للمواطنين أصحوا أكثر إحاطة بالقضايا العامة وأكثر مشاركة في السياسات الثقافية حتى وإن بدت الأنماط التقليدية للسياسات تقصيرهم عن المشاركة" (Makke, 2005, p44).

أما المفكرون العرب ومنهم إبراهيم غانم فقد انتقدوا هابرماس من حيث أنه تناول الفضاء العام فقط في التجربة الغربية، وتساءل غانم ألا يصلح الفضاء العام لتفسير واقع المجتمعات العربية، لأنه نشأ في سياق مجتمعي غربي؟ حيث يرى غانم أن "غياب نظرية متكاملة عن الفضاء العام في الفكر العربي لا ينفي وجود الظاهرة في مجتمعنا، ولا بد من الوعي بالمفهوم الغربي والاستفادة من تجربته بما يتوافق مع مجتمعنا باعتباره إسهاما نظريا مهما، ولا يمكن إنكار أهمية مفهوم المجال العام بدلالاته العامة لمجتمعاتنا العربية والإسلامية، دون التقيد بما وضعه هابرماس من حدود وشروط استلهمها من التجربة الحديثة الغربية. الأمر الذي يتطلب تحديد إمكانية الاستفادة من الأطروحات الغربية حول المفهوم نظريا وتحليليا وتطبيقيا من جهة، والكشف عن دلالات المفهوم وتطور الظاهرة في المجتمعات العربية والإسلامية بما يسهم في صياغة نظرية مستقلة بديلة، أو مكملة للأطروحات الغربية، حول المجال العام انطلاقا من قيمنا وأطرنا المعرفية من ناحية أخرى" (غانم، 2009، ص40).

أما هنا أرندت فكانت قد تناولت الفضاء العام بمفهوميه العام والخاص في كتابها (الوضع الإنساني) "The Human Condition" والتقت مع هابرماس في نقاط مختلفة واختلفت عنه في نقاط عدة كذلك.

نقول أولاً: أن أرندت قد ربطت بين الفضاء العام والنظرية السياسية بشكل مباشر، ومن ناحية أخرى، فقد شذبت الفضاء العام بالأداء المسرحي الذي يعلن فيه المشاركون السياسيون عن ذواتهم وحاجاتهم بالكلام والعمل. ومن جهة فإن أرندت قد اعتبرت أن دولة المدينة اليونانية هي نموذج معياري للفضاء العام الفاعل. "وإن دولة المدينة اليونانية لم تكن دولة المدينة في صورتها المادية؛ بل هي مجموعة من الناس يعملون ويتحدثون معاً بشكل منظم، ومكانها الفعلي هو الذي يجمع بين الناس الذين يعيشون معاً من أجل هذا الغرض، بغض النظر عن موقع هذا المكان" (Arendt, 1998, P49).

"فدولة المدينة تعبر عن فضاء الظهور، والفضاء هو المكان الذي أظهر فيه للآخرين كما يظهر الآخرون لي، حيث يوجد الناس ليس فقط مثل الأشياء الأخرى الحية وغير الحية، ولكن لكي يظهروا بوضوح. ويمكن خلق هذا الفضاء العام من جديد دائماً حيثما يجتمع الأفراد سياسياً معاً أو حيثما يكون الأشخاص مجتمعين معاً في ضوء أحاديثهم وأعمالهم. وكما تقول أرندت فإن ذلك "بعكس الفضاءات التي نصنعها بأنفسنا، لا تبقى على واقعية الحركة التي أوجدتها، ولكنها لا تختفي فقط بتفريق الناس – كما في حالة المصائب الكبرى عندما يحطم الهيكل السياسي للناس – ولكن باختفاء الأنشطة نفسها أو توقفها" (Arendt, 1998, p198).

فالفضاء العام عند أرندت إذن هو "الفضاء الذي يعبر فيه الأفراد عن أنفسهم، والمضمار الذي يجب على كل فرد أن يبرز نفسه فيه باستمرار، أن يعلن عن نفسه من خلال أعماله وانجازاته المميزة له عن غيره" (Arendt, 1998, p200). وإذا كان الفعل السياسي هو فعل تعرض فيه الذات نفسها، فلا بد لها من مكان لهذا الغرض. ويحدث ذلك بحسب أرندت من خلال "شبكة العلاقات البشرية"؛ وهذه هي الشبكة هي عبارة عن مجال يتحدث ويعمل فيه الأفراد بشكل تفاعلي، والسياسية عند أرندت تتطابق فضاءاً عاماً، بل أن السياسة تنشأ حيث الفضاء المشترك للأفراد، إن "معظم الكلمات والأفعال هي بخصوص الواقع الفعلي فضلاً عن كونها إعلاناً عن الذات الفاعلة والمتحدثة" (Arendt, 1998, p202).

وبحسب أرندت فإن المجال المشترك ينشأ من خلال النظرية السياسية، التي ترى طبيعة الأفراد – بحسب أرسطو – أن، الإنسان بطبعه حيوانٌ سياسي، يعيش في دولة المدينة، وهو كذلك حيوان ناطق. "فهو ذلك الذي يشترك في الفعل السياسي من خلال ميكانيكية الكلام. فالاجتماع معاً للتحدث للحوار والمناقشة مع مواطنين معروفين للفرد ومميزين في المجتمع يكون حيث توجد سياسة وحيث يكون الناس أحراراً. وهذا هو الفضاء المشترك للحوار بين الأشخاص المتحدثين الذين يعبرون عن أنفسهم بأدوارهم النشطة العامة وبالمشاركة مع غيرهم من المواطنين" (Arendt, 1998, p54). ومن هنا نجد أن أرندت ترى أن السياسة تنشأ فضاءها بواسطة الأفراد المتساوين عن طريق الحوار والنقاش الحر.

أما نانسي فريزر Nancy Fraser فتنتقد الأطروحة التي يقدمها هابرماس بشأن الفضاء العام، وتحديداً النموذج الإمبريالي. فهي ترى عدم ملائمة النموذج الإمبريالي للفضاء العمومي البرجوازي النظرية النقدية المعاصرة، إذ ترى الحاجة الضرورية، والجدادة إلى تصور ما بعد برجوازي لمعرفة حقيقة، ومكونات، وأدوار الفضاء العام فيها. لقد فهمت فريزر القيمة السياسية للفضاء العام، وتحديداً مساهمته في خلق الحركات الاجتماعية الجديدة المختلفة: كالحركات السياسية والأقلية الأثنية والنسوية والثقافية... إلخ.

إن اهتمام فريزر ينصب في مقارنة الفضاء العام في النظرية النقدية المعاصرة، ومن ثم فحص لأسسه السياسية والفلسفية، وأدواره التي يمكن أن يقوم بها، خصوصاً على الصعيد السياسي، في أطروحة مفادها إمكانية وجود فضاء عام ما بعد برجوازي Post Bourgeois Public Sphere. تنظر فريزر إلى الفضاء العام بوصفه مجالاً يمكن من خلاله إيجاد حلول للمشاكل المعاصرة في الدولة، خصوصاً ما يتعلق بالفعل السياسي للجماهير، وممارسة المشاركة والديمقراطية.

وتعرّف فريزر الفضاء العام على أنه: "فضاء المجتمعات الحديثة، وهو فضاء المواطنين الذين يناضلون من أجل مصالحهم المشتركة، فضاءً يؤسس تفاعلاً تداولياً. وهي تنتقد تعريف هابرماس للفضاء العام الذي يسقط فيه نموذج الفضاء العام البرجوازي على المجتمعات الحديثة، فهو يحدّد مشاركة جمهور مثقف يتقن استخدام العقل بشكل نقدي، وبالتأكيد فإن مجتمعات القرنين الثامن والتاسع عشر مختلفة عن المجتمعات المعاصرة. ولكنها تعود لاستقاء ما هو أساس في نظرة هابرماس، وهو صلة الفضاء العام بالنظرية النقدية للممارسة السياسية، وكون الفضاء العام مكاناً لإنتاج الخطاب النقدي اتجاه الدولة، وعلاقات التداول والتخاطب والنقاش" (Fraser, 1990, p56).

كما تنتقد فريزر هابرماس لعدم تنظيره لفضاء عام بديل عن النموذج الليبرالي الذي يتناسب والشروط الجديدة لديمقراطية الجماهير، ووظائف النظرية النقدية المعاصرة، التي وجب أن يهتم بها هابرماس ويوليها الأهمية القصوى. لذلك تدعو فريزر إلى تجاوز نظرية هابرماس في الفضاء العام بنموذج الليبرالي، إلى تفكير بفضاء عام ما بعد برجوازي. حيث أن هابرماس لم يقدّر سوى بتشريح الفضاء العام البرجوازي وبيان تشكلاته ومكوناته وأدواره، بينما كان عليه بالدرجة الأولى أن يتناول كإشكاليته، في دور يتناسب والوظيفة النقدية التي يُعنى بها هابرماس أساساً. كما كان عليه أن يقترح بديلاً لفضاء عام ما بعد برجوازي يصون الوظيفة النقدية في مجاله.

الخاتمة

يعتبر هابرماس الفضاء العام، بمثابة فضاء للقضايا العامة، وهو بمعنى آخر فضاء تواصل في العالم المعيش، وهو العالم الذي يكون فيه الفرد بوصفه كائناً اجتماعياً وسياسياً، يمارس مواظنته وحرياته وحقوقه، ولا معنى للفضاء العام ما لم يكن مجالاً للفعل السياسي الديمقراطي، والحوار وتبادل الرأي، بل وتكوين قوة مضادة للسلطة، تكون بمثابة قوة نقيضة للسلطة.

كما يأخذنا الفضاء العام للنظر في إشكاليات العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني، بما هو علاقة بين النظام والعالم المعيش، بما فيه اشتغال الفضاء العام كمنطقة تفكير في الممارسة الإنسانية في الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتفكير في أدوار الفرد ومشاركته واندماجه في الحياة السياسية والاجتماعية، وما يقتضي فعله في هذه الأبعاد من وسائط تواصلية في إطار أخلاقي لتحقيق إجماع، أو رؤية متفق عليها.

يظهر التعارض الشديد بين الدولة بمؤسساتها وأدواتها وبين الفضاء العام كمؤسس ومؤطر للفعل السياسي والرأي العام الحر للأفراد. حيث يظهر هذا التعارض من خلال وسائل الهيمنة التي تتبعها الدولة، والتي تعمل من خلالها على محاولة السيطرة على الرأي العام وتوجيهه نحو أهدافها، وذلك من خلال توظيف قنواتها القانونية والإعلامية والإشهارية. بينما نجد الدائرة العمومية تلعب دوراً في نقد السلطة وآليات السيطرة والهيمنة فيها، اعتماداً على تفعيل دور العقل في بيئة خصبة تؤسس لشروط الديمقراطية، ويبني رأياً عاماً قادراً على القيام بأدواره كوسيط بين حاجات الأفراد ومؤسسات الدولة.

ذكرت سابقاً أن هابرماس تناول نموذجاً للفضاء العمومي، وهو نموذج المجتمع البرجوازي في أوروبا خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، وكيف أن المجتمع البرجوازي آنذاك قد استخدم الدعاية وأدوات التتميط مبكراً، لتغليب وتعليب وعي الجماهير، بغية إحكام السيطرة الشاملة على الأفراد من خلال التأثير على الرأي العام، وتشكل وعي أيديولوجي زائف في تمويه وتضليل وتشويه، "وهي ما أسماها ماركس أدوات التحكم والهيمنة المادية، القمع المادي والأيديولوجي. وتعتبر هذه الأدوات أدوات مباشرة لفرض الهيمنة، بينما تمة أدوات أخرى رمزية وغير مباشرة، تهدف إلى فرض السيطرة من خلال مؤسسات المجتمع ابتداءً من الأسرة والمدرسة ومكان العمل. إلخ. وتظل الطبقة المسيطرة متحكمة، ما دامت تحافظ على سيطرتها الحثيثة على أدوات ووسائل الإنتاج. التحولات الكبرى في الفضاء العام البرجوازي مرتبط بتطور علاقات الإنتاج، وأشكال التبادل والتواصل" (العلي، 2014، ص6). ومن ذلك فإن "أنماط العمومية كما بينها هابرماس في المجتمع الأوروبي فقد اتخذت نمطين، أولها: عمومي نقدي يحمل رأياً عاماً نقدياً. وثانيهما: عمومية دعائية تخضع لوسائل الاعلام الرسمية الموجهة من قبل الدولة" (رشيد، 2014، ص7).

ومن ذلك فإنه يصح القول بأن السلطتين السائدتين في الفضاء العام "هما: السلطة الحاكمة الرسمية، وأخرى تترأسها سلطة غير رسمية، ولا تتمثل في المؤسسات الرسمية، وهي كل أنواع الحركات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. السلطة الأولى الرسمية تتدخل في الفضاء العام بشكل رسمي وشرعي لتنظيم شؤون الدولة والمواطنين. وأما السلطة الثانية غير الرسمية، فتصبو لتحقيق المزيد من المكتسبات والمطالب للمواطنين، الذين يشكلون وقودها الحقيقي، فهم الفاعلون فيها. كما أن حقيقة مطالبهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، هي أصل مشروعية السلطة غير الرسمية بالنسبة لهم. وقوة هذه السلطة هذه بمثابة قوة ضغط حيوية للمجتمع في مواجهة السلطة التي تطمح دائماً لخلق رأي عام ينسجم ومصالحها بكافة الموارد والإمكانات والوسائل، وذلك عن طريق السيطرة على الوظيفة النقدية، والتي هي في الأساس منوطة بالفضاء العام؛ أي أن الدولة تقوم بالتحكم بالدور النقدي للفضاء العام من خلال التحكم عملياً بالفعل السياسي، بحيث تقوم بتأطير

الممارسة السياسية، وتوظيف الأحزاب والنقابات والجمعيات ودور النشر ووسائل الإعلام لتوجيه الرأي العام لصالحها" (كنزاي، 2014، ص102).

أما عن شروط البعد السياسي وأساس حضوره في الفضاء العام، "فتتمحور حول الحضور الديمقراطي كمطلب للممارسة السياسية. وقد اعتمدت ركائز البعد السياسي العقلاني الحر عند هابرماس على مقاربتين مهمتين: أولهما مسألة الشرعية أو الممارسة الديمقراطية. وثانيهما مسألة التعاقد الاجتماعي، ويشمل ذلك حرية استعمال العقل العام والخاص" (علي، 2013، ص254).

كما تستحوذ الفئات الاجتماعية أو الطبقات أو أصحاب العلاقات المادية على وسائل الدعاية وإنتاج الرأي، تماماً كما تحاول الإدارات السياسية الاستحواذ على مجمل الفضاء العام، لذلك فإننا نجد هابرماس يركز على مسألة الإعلام ودوره في تداول الشأن العام ومناقشته. ذلك أن وسائل الإعلام، كالجريدة مثلاً، تحولت بفعل ضغط السوق والإشهار والدعاية الطبقية إلى خدمة المصالح المادية المباشرة للطبقة المسيطرة، ومع ذلك ظهرت الصحافة السياسية كالجريدة الحزبية. ويرى هابرماس أن الرأي العام الذي يتحدث عنه هو الرأي النقدي الذي يتشكل لدى الجمهور عامة، حيث أن مفهوم العمومية هنا يرتبط مع الجمهور الحامل لأحكام والذي يمتلك القدرة على استعمال العقل.

إن الفضاء العام، وهو بمثابة مفتاح الممارسة عند هابرماس كما ظهر لديه في سبعينيات القرن الماضي، ويمثل دائرة تتوسط بين الدولة والمجتمع؛ أي بين منطقة المصالح الخاصة المتعددة والمتنوعة، وبين منطقة السلطة، وهو فضاء يجتمع فيه الأفراد لصياغة آرائهم ضمن مجمل النقاشات، وتكوين رأي عام من خلال التبادل العقلاني لوجهات النظر، وهذه هي وسيلة الأفراد ضمن الفضاء العام للضغط على جهاز السلطة. والفضاء العام بحسب هابرماس ليس معطى قبلياً بل هو نتاج التجربة التاريخية. إنه فضاء رمزي يتكون عبر الزمن تتبلور فيه المنظومات والمفردات وقيم مشتركة وأعراف بالشرعية المتعددة التي تخص كل فاعل، بحيث يتم النقاش فيها والتساور والاعتراض. وهو ليس فضاءً نختاره بأنفسنا، بل هو يعكس حقيقة ممارساتنا الديمقراطية، أو تعبير عن اختلاف المصالح والآراء والأيديولوجيات، وهو ما يتيح كذلك لمجموعة من الأفراد المشاركة في الحياة السياسية. كما يفترض الفضاء العام وجود أفراد يتمتعون باستقلالية كما أنهم قادرين على صياغة وجهات نظرهم والتعبير عن توجهاتهم بمعزل عن آراء النخب أو الأحزاب السياسية. وفي الفضاء العام إمكانية التوصل إلى حلول من خلال النقاش والحوار، ومن هنا فإن الانطلاق في بحث هذه الأطروحة يبدأ من مسألة يتم فيها مناقشة النظرية وعلاقتها بالممارسة في طرح لمسألة إعادة بناء الفضاء العام الذي هو بمثابة شرط لنهوض تجربة ديمقراطية من خلال الرؤية النقدية.

References (Arabic & English)

- Adelloff, Franc. (2009). *Civil society theory and practice*. Abdul Salam Haidar. Cairo: Al Mahrousa.

- Ashhab, Mohamed. (2013). *Philosophy of the right to theory of communicative action*. Within a group of authors of Habermas' Right Philosophy. (N.P).
- Rabeo, Mohamed. (2014). *In the critique of Habermas' thesis on the genology of modern public domain*. Morocco.
- SAID, Ould Abah, Abdullah. (2007). Citizenship in the Post-National State: The Concept of Constitutional Citizenship in Habermas. *Journal of Tolerance*. P.20. Amman.
- Al-Alawi, Rashid. (2014). The public space from Habermas to Nancy Fraser. *Journal of the Delta N*. P.
- Ghanim, Ibrahim. (2009). The origins of the public domain and its transformations in the Islamic political meeting. *National Social Journal*, vol. 46, p.1.
- Flanston, James. (2005). *Jürgen Habermas*. Translated by Ahmed Mohamed Roubi. Cairo: Hindawi Publishing Corporation.
- Fawzi, Kanzai. (2014). Frankfurt School Paradigm at stake. *Journal of Humanitarian Research*.
- Funeska (ND). Habermas' Influence on Contemporary Constitutional Jurisprudence. *Journal of Public Law and Politics*. P. 1147.
- Kant, Emmanuel. (2007). *The Permanent Peace Project*. T Osman Amin, Syria: Dar Mada.
- Mohammedawi, Ali. (2013). *The Political Problem of Modernity: from Self Philosophy to Philosophy of Accomplishment*, Lebanon: Dar Al Aman.
- Al-Masiri, Abdul Wahab. (1999). *Encyclopedia of the Jews, Judaism and Zionism*. M. Egypt: Dar El Shorouq.
- Arendt, Hannah. (2007). *The Human Condition*. University of Chicago Press: US.

- Fraser, Nancy. (1990). *Rethinking the Public Sphere: A Contribution to the Critique of Actually Existing Democracy*. Duke University Press: UK.
- Shelton. A. Gunaratne. (2003). *Habermas, Public Sphere, and Communication-Action Theory* Mass Communications Department, Minnesota State University: US.
- Arendt, Hannah. (1998). *The human condition*, the university of Chicago press: Chicago,
- Habermas, Jurgen. (1991). *Structural Transformation of the Public Sphere*. Tr by Thomas Burger. MIT Press: Cambridge.
- Habermas, J. (1974). *Critical Essays, New German Critique*, Tr Sara Lennox. NP.
- Johnson, Paulin. (2001). Habermas's search for the public sphere, *European Journal*, V4. UK.
- Makee, Alan. (2005). *The Public sphere: and introduction*, Cambridge University press: UK.
- Walad abah, Asaed. (2013). The Traditions and the public sphere in Hana Arendet Thought. *Tsamouh Journal*. RETRIEVED ON 15-9-2017 <http://tafahom.om/index.php/nums/view/11/221>.
- Abed almouhsen, Somaya. About the public sphere. RETRIEVED ON 15-9-2017. <http://www.hadaracenter.com/pdfs/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AC%D8%A7%D9%84%20%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%85.pdf>.
- <https://en.oxforddictionaries.com/definition/agora> RETRIEVED ON 3-9-2017